

الفصل الرابع

الكتائب في الإسلام

نريد أن نقصر الكلام على التعليم الأولي أو التعليم في الكتاب ، ولا شأن لنا بأنواع التعليم الأخرى ، لأن المؤلف لم يتناولها بالبحث . ولم يكن القابسي مشرعاً في هذا الفن : بل مؤرخاً وصف ما انتهى إليه حال تعليم الصبيان في عصره ، من تعود معلم في الكتاب يذهب إليه الصبيان فيحفظون عليه القرآن ، ويتعلمون القراءة والكتابة وبعض النحو والعربية والحساب . وكان الحال كذلك في القرن الثالث الهجري كما وصف ابن سندون في كتابه ، وهو الكتاب الذي أعتمد عليه القابسي كثيراً .

والتعليم ظاهرة اجتماعية ، يخضع كغيره من الظواهر الاجتماعية لقوانين الحياة من النمو والازدهار ، والتراجع والموت .

ولم تنشأ الكتائب منذ ظهور الإسلام ، فالمعروف أن بلاد العرب في عهد النبي لم يكن فيها تعليم منتظم ، والمشهور أن العرب أميون ، ولو أن هناك أخباراً تدل على غير ذلك .

والجديد في الكتاب هو صيغته الديمقراطية التي يسرت للصبيان قاطبة قسطاً من التعليم . وهو بهذه الصورة لم يكن معروفاً منذ ظهور الإسلام . لذلك نعود إلى الوراء لنرى متى وكيف بدأ انتشار التعليم في الكتائب على الصورة المذكورة عند القابسي . عن ابن حزم^(١) : « مات رسول الله والإسلام قد انتشر وظهر في جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم ماراً إلى سواحل اليمن كلها إلى بحر فارس إلى منقطعه ، ماراً إلى الفرات ثم على ضفة الغرات إلى منقطع الشام إلى

(١) ذكرنا هذا النص من قبل ، ونبيده مرة أخرى لأهميته .

بحر القلزم . . وفي هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده إلا الله كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلى طى وريية وقضاة والطائف ومكة . كلهم قد أسلم وبنا المساجد ، ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب إلا قد قرئ فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب»^(٢) . ثم قال بعد قليل : « ثم مات أبو بكر وولى عمر ففتحت بلاد الفرس طولاً وعرضاً ، وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ، ولم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد ، ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن ، وعلمه الصبيان فى المكاتب شرقاً وغرباً»^(٣) .

فى تاج العروس قصة يتضح منها أن الكتاب كان موجوداً فى زمن عمر ابن الخطاب . قال فى صدد كلمة أئجد : « ويذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لى أعرابياً فقال له هل تحسن أن تقرأ القرآن ؟ قال نعم . قال فاقرأ أم القرآن . قال والله ما أحسن البنات فكيف الأم ؟ قل : فضربه ثم أسلمه إلى الكتاب ، فكث فيه ثم هرب ، وأنشأ يقول :

أتيت مهاجرين	فعلموني	ثلاثة	أسطر	متتابعات
كتاب الله	فى رق صحيح	وآيات	القرآن	مفصلات
فخطوا لى	أباجاد وقالوا	تعلم	سفنصاً	وقريشات
وما أنا	والكتابة	والتهجى	وما حظ	البنين من البنات

ونستدل من كلام ابن حزم ومن القصة السابقة على أن ظهور الكتابات أو المكاتب ليتعلم فيها الصبيان كان فى عصر الفتوحات الإسلامية العظيمة ، وهى الفرس والشام ومصر وجزيرة العرب كلها . أما قبل ذلك فقد كان الإسلام لا يزال يجهاد فى نشر العقيدة فى جزيرة العرب التى كان مركزها مكة ثم المدينة . على حين كان الفرس على حضارة تحالف الحضارة الإسلامية ، وأهل الشام ومصر يتبعون الحضارة اليونانية التى تطورت فى ظل دولة الروم .

فإذا كان حال التعليم فى بلاد العرب وفى الفرس وفى الشام ومصر .

(٢) ابن حزم ج ١ ص ٦٦ .

(٣) ابن حزم ج ١ ص ٦٧ .

أما في داخل بلاد العرب فكانت معرفة الكتابة قليلة جداً . عن البلاذري في فتوح البلدان : « دخل الإسلام وفي قریش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب : عمر ابن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان . . »^(٤) .

وعن البلاذري أيضاً : « كان الكتاب بالعربية في الأوس والحزرج قليلاً وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول فجاء الإسلام وفي الأوس والحزرج عدة يكتبون »^(٥) . وذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة قول أبي بن كعب : « لقد قرأت القرآن وزيـد هذا غلام ذو ذؤابتين يلعب بين صبيان اليهود في المكتب »^(٦) كل هذا يدل على أن من يعرف الكتابة من العرب كان بضعة نفر . ثم إن النبي كان أمياً لا يعرف الكتابة . والثابت في كتب السيرة أن النبي افتدى أسرى بدر ، فمن لم يكن له فداء أمره أن يلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة . وفي هذا العمل إجماع للمسلمين بين اتجاه النبي إلى محبة التعليم ونشره .

ونخلص من هذا إلى أن الإسلام حين ظهر في عهد النبي ، لم تكن في بلاد العرب كتابات متشرة ، يذهب إليها الصبيان . وأن الذين عرفوا القراءة والكتابة هم بضعة نفر من الطبقة الرفيعة ، تعلموا الكتابة بحكم صلتهـم بغيرهم من الدول المجاورة كالفرس والروم ، ولحاجتهم إليها في التجارة . وذلك في مكاتب معظم الروايات تدل أنها كانت لليهود .

المدارس في فارس :

كيف يتعلم الصبيان في فارس ؟ أكانوا يذهبون إلى مدارس أم كتابات يتلقون فيها القراءة والكتابة ومبادئ العلوم حتى إذا فتح العرب بلاد الفرس وجدوا أمامهم هذه النظم فنقلوها عنهم ، أم أن نظام الكتابات نظام إسلامي ابتكره المسلمون ؟

(٤) البلاذري ص ٦٧ .

(٥) البلاذري ص ٤٥٩ .

(٦) ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٤٥٩ .

كان الفرس أهل حضارة زاهرة يعلو مستواها بكثير عن الحضارة العربية . وكان العرب أهل بداءة لا نستطيع أن نصفهم بالحضارة . لذلك لما أخضع المسلمون الفرس والروم ، اضطروا إلى اقتباس نظمهم في الإدارة والحضارة ، فكانت الدواوين تكتب بالفارسية أو الرومية .

وظلت الدواوين تكتب بغير اللغة العربية إلى أيام هشام في الدولة الأموية . « وكان أكثر كتاب خراسان إذ ذاك مجوساً ، وكانت الحسابات بالفارسية : فكتب يوسف بن عمر وكان يتقلد العراق في سنة أربع وعشرين ومائة إلى نصر ابن سيار كتاباً أنفذه مع رجل يعرف بسلام الطيار بأمره ألا يستعين بأحد من أهل الشرك في أعماله وكتابه »^(٧) . ويتضح من هذه القصة أن صناعة الكتابة ظلت بالفارسية في يد الفرس حتى الصدر الأول من لمائة الثانية .

وقد ظلت الدواوين بالفارسية حتى عصر عبد الملك بن مروان . عن الجهمياري : « ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم ، وهذا الذي كان عمر قد رسمه ، والآخر لوجود الأموال بالفارسية . وكان بالشام مثل ذلك أحدهما بالرومية والآخر بالعربية . فجرى الأمر على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان »^(٨) .

وليس غريباً أن تظل الدواوين في أيدي كتبة الفرس باللغة الفارسية طول هذه المدة ، لأن العرب كانوا يجهلون هذه النظم الإدارية لبدائتهم الإدارية ، ولابد من فترة انتقال يتم فيها تعلم العرب هذه الصناعة ، وتعريب الفرس . ثم نسأل أكانت الكتابة عامة في جميع الفرس أم خاصة بطبقة معينة ؟

الواضح من التاريخ أن نظام الطبقات كان شائعاً في فارس : « وكان رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد من غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل إلى الملك عرفت بلبسته صناعته ، والطبقة التي هو فيها »^(٩) .

(٧) الوزراء والكتاب للجهمياري ص ٦٧ .

(٨) الوزراء والكتاب للجهمياري ص ٣٨ .

(٩) الوزراء والكتاب للجهمياري ص ٣ .

ويؤيد ما جاء عن شيوع نظام الطبقات ما ترجمه عن الأستاذ أكبر مظاهري^(١٠) حيث قال : « ويتعلم الطفل مهنة أبيه ، إذ كان النظام الاجتماعي في إيران يقضى بتوزيع الناس في طوائف فهم يتوارثون المهن عن آبائهم . وفي ذلك يقول الفردوسي : لم يسمع أحد أن صانع أحذية أصبح كاتباً . فالطفل يتبع مهنة أبيه ، فإذا كان زارعاً فإنه يعلم ابنه الزراعة ، أو صانعاً فإنه يعلمه صنعه ، أو كاتباً فإنه يعلمه الكتابة والخط ، والكاهن يعلم ابنه العقائد المقدسة ، والجندي يربي ابنه لمعيشة الحرب »^(١١) .

أما أبناء الأشراف فيتلقون طائفة من المعارف على أيدي مربّ أو اثنين ولا يذهبون إلى المدرسة الأولية التي تخصص لهم ، وفيها يتعلمون العلوم المقدسة والآداب والموسيقى والرياضة البدنية واستعمال السيف .

وإذا كان هناك تمييز في التعليم المهني والاجتماعي ، فالجميع متساوون في شيء واحد هو التعليم الديني^(١٢) .

ويتعلم الطفل مبادئ الدين عن أبيه . فإذا لم يتسن للأب أن يعلمه لضيق الوقت فليرسله إلى أقرب معبد حيث توجد المدرسة ، ليتعلم القواعد الدينية ، والتاريخ المقدس ، والتقويم ، وأسماء الشهور والأيام ، والأدعية ، والواجبات الدينية .

وطريقة التعليم هي أسئلة وأجوبة ، وإليك نماذج منها :
أيها الطفل من تكون ؟ من أين جئنا وإلى أين نذهب ؟ أنتسب إلى يزدان أم إلى أهرمن ؟ إلى خالتي خير أم شريري ؟ ما الخير والشر ؟ ... إلخ .
ويحفظ الطفل الإجابات عن هذه الأسئلة عن ظهر قلب ، وتفسر هذه الإجابات شيئاً فشيئاً بعد الاطلاع على أسرار الدين .

وتعني الأم بطفلها حتى سن الخامسة ، فتعلمه الخير والشر^(١٣) . وبهتم الإيراني

(١٠) Aly Akbar, Mazaheri. La Famille Iranienne aux temps anti-islamiques
Paris 1938.

(١١) ص ١٧٢ .

(١٢) ص ١٦٨ .

(١٣) ص ١٧٥ .

اهتماماً كبيراً بالتربية ، لذلك يعلم ابنه آداب السلوك ويث فيه بعض التعاليم الخلقية ليصبح رجلاً شريفاً . وحينما يكبر الطفل يعلمه حرفة . ولا يعلم الأب ابنه شيئاً له غرض عملي .

ونستج من هذا أن التعليم في فارس كان مقصوراً على طبقة معينة هي طبقة الكتاب والأشراف ، أما عامة الشعب من زراع وصناع فعناية بهم بالمهنة . أما التعليم الديني العام ، فلم يكن الغرض منه التعليم لذاته ، أو معرفة القراءة والكتابة ، بل تلقين أسرار الديانة الفارسية ، وهي ديانة ثنوية تخضع العالم لإلهين أحدهما للخير والثاني للشر . وكان الأطفال يتلقون هذه المبادئ في داخل المعابد ، ولم تكن هناك مدارس منفصلة عنها . ولم يكن الأطفال يتلقون مبادئ القراءة والكتابة لأنها مخصصة بطبقة الكتاب .

لهذا لم تعرف الفرس نظام الكتابيب . لأن الكتاب في الإسلام مكان يتعلم فيه الصبيان الكتابة والقراءة إلى جانب القرآن الكريم ، على حين كانت الكتابة صناعة خاصة بطبقة معينة عند الفرس . والمدارس الدينية مختلفة في نوعها عن الكتابيب لأنها ملحقة بالمعابد ، وأساس التعليم فيها هو معرفة الطقوس الدينية ومزاولتها .

المدارس في الشام ومصر :

وننظر الآن إلى البلاد التي كانت خاضعة للروم ، وهي الشام ومصر لنرى أكان فيها نظام لتعليم الصبيان يشبه الكتابيب . ونقصد بهذا النظام أنه عام لجميع أفراد الشعب ، وأنه منفصل عن المساجد ، وأن الصبيان كانوا يتعلمون فيه القراءة والكتابة .

في الوقت الذي فتح فيه العرب هذه البلاد كانت الحضارة السائدة فيها مضطربة منقسمة على نفسها ، خاضعة لتيارات مختلفة متعارضة . فإلى جانب حضارة الرومان واليونان الوثنيين ، جاهدت المسيحية للقضاء عليهما ، ومع ذلك احتفظت المسيحية بكثير من تراث الرومان والإغريق .

ولما تدهورت الدولة الرومانية الغربية وعاصمتها روما ، غزا الجرمان روما ،

ولم تكن قبائل الجرمان على شيء من الحضارة . فهدموا المدن ، وذوت الحضارة وعفت آثارها ، وأصبحت الكعب نادرة ، وتم التدهور تدريجياً ، حتى إذا كان القرن السادس الميلادى انعدمت الثقافة وقبرت المدارس الرومانية . وكانت الحاجة ماسة إلى قوم مثقفين للقيام بشئون الحكومة . فصالت الكنيسة وحدها في الميدان وقامت بالتعليم ، ولكنها قصرت على مقدار حاجتها منه ^(١٤) .

ومن أبرز أسباب سقوط الحضارة الرومانية الترف الذى ساد الحاكمين بعد ما أصابوا من أسلاب الدول المغلوبة على أمرها ، لذلك انصرفوا إلى الملاذ والاستمتاع بمباهج الدنيا ، وركنوا إلى حياة الكسل والترف . ومن قبل ذلك قضى الرومان على الحضارة الإغريقية بالسيف ، وانتقلت الثقافة اليونانية من أثينا إلى الإسكندرية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وظلت زاهرة زمناً ثم تدهورت لما أصاب العالم من انحطاط ، حتى فتح العرب مصر .

ووجد الناس في المسيحية الدين الذى يلتئم مع نزعات النفس الجديدة ، فهو دين يدعو إلى تطهير النفوس من الأدران ، وإلى الزهد في الحياة المادية التى ستمها الناس .

ولكن المسيحية لما انتشرت أولاً في الشرق ، ثم في آسيا الصغرى والإسكندرية وأثينا ، اصطدم رجالها بعقول أهل الفلسفة الإغريقية الذين لا يقنعهم الإيمان المسيحى فحسب ، وإنما يريدون أن يفهموا الديانة فهماً عقلياً منظماً كما يفهمون النظم الفلسفية . من أجل ذلك اضطرقساومة المسيحيين إلى التسلح بالأدلة العقلية العميقة للرد على انتقادات هؤلاء القوم ، وهذا هو السبب في نشأة مدرسة الإسكندرية وغيرها للبحث في أساس الديانة المسيحية ^(١٥) .

وفي أيام المسيحية الأولى أنصرف المسيحيون إلى تطهير أنفسهم من أدران العالم الملىء بالشور ، ولم يتصلوا بالحكومة على أى وجه ، كما لم يكن بين الكنيسة والدولة صلة . فلما قوى نفوذ الكنيسة وأصبحت دولة داخل الدولة ، برز فيها رجال

عرفوا بالدهاء السياسى فجعلوا للكنيسة نفوذاً مدنياً إلى جانب النفوذ الدينى . ولم تعجب هذه السياسة كثيراً من المسيحيين الزاهدين فى النظر إلى الأمور الدنيوية والاتصال بالعالم المملوء بالآثام والشور ، فانصرفوا إلى الصحراء والجبال والغابات ، واتخذوا من الكهوف والمغاور مأوى يحميهم من رذائل الناس . وتلخص مبادئهم فى المعيشة الأخوية ، والزهد عن العالم والفقر والعفة والطاعة وشغل البدن بأشق الأعمال حتى تصفو الروح وتسمو ويعيش الأعضاء فى خلوة فلا يجتمعون إلا عند تناول الطعام والدعاء .

هذا هو بدء الرهبة فى الشرق ، وانتشرت منها إلى الغرب فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، وبلغت الأوج فى القرن الخامس^(١٦) .

والرهبة هى الجانب المتطرف فى الدين المسيحى .

وهى رد فعل لحياة الترف والاستمتاع التى سادت فى ذلك العصر .

هذا ماكان من شأن المسيحية فى الشرق ، تسلىح بعض رجالها بعلوم اليونان والرومان للدفاع عن مبادئ العقيدة المسيحية ، ونزل البعض الآخر إلى ميدان السياسة لتعليم المذهب المسيحى الذى قدر له الانتصار حتى أصبح ديناً رسمياً للدولتين ، واعتصم فريق منهم بالزهد والرهبة فى الصوامع والأديرة .

ونشأ فى الغرب صراع بين المسيحية وبين الشعوب المتبريرة ، تغلبت فيه المسيحية كما تغلبت فى الشرق . ولكن الشعوب الجرمانية كانت فتية مملوءة بالحياة ، طافحة بالطموح ، فكيف قبلت المسيحية التى تنادى بالحرمان والزهد ؟

فى القرون الوسطى تناقض كبير بين الحياة الواقعية التى يقبل فيها الناس على اللذات ، وبين الحياة المثالية التى تصورها الأخلاق المسيحية بما فيها من تضحية وزهد وقسوة فى المعيشة وتقييد لأسباب الحياة .

ومع ذلك فهناك جانب فى المسيحية اتفق مع مطامع المسيحيين . فهو دين العامة والبسطاء والفقراء . وقد سمى المسيحية بفضيلة التواضع ونشدت بساطة

القلب والعقل . ولما كان الجرمان شعباً في دور الطفولة فهم أهل بساطة وتواضع ، وهم أيضاً فقراء لأنهم كانوا يعيشون عيشة البداوة ، لذلك قبلوا مع السرور هذا المذهب الجديد الذي يمجّد الفقر والبساطة .

وقد حارب الجرمانيون الحضارة الوثنية الرومانية كما حاربها المسيحيون . وهذا يفسّر لنا المودة التي توثقت عراها بين الكنيسة والمثيرين ، وكيف وجدت المسيحية أرضاً خصبة بين الشعوب الجرمانية . والسرفى هذا يرجع إلى أن مبادئ المسيحية حققت آمالهم ، ووجدوا فيها الراحة الخلقية التي لم يعثروا عليها في مكان آخر . ومن ناحية أخرى كانت أصول المسيحية ترجع إلى جذور يونانية ورومانية لم يكن من السهل التخلص منها . ولا يغيب عن بالنا أن المسيحية نشأت ونمت في العالم الروماني ، فحملت معها برغم إرادتها كثيراً من حضارة الرومان ووثنيهم . وكانت لغة المسيحيين هي اللغة اللاتينية في الغرب ، واليونانية ثم السريانية في الشرق .

وكانت غاية المسيحية الخلاص بالإنسان من الإثم والنجاسة به من الرذيلة ، وقد خشيت إقبال الناس على دروس آداب الرومان واليونان وفنونهم وعلومهم ، وهي ثقافة في مجموعها لا دينية قد تصرف الناس عن الإيمان الصحيح . وقد عجزت الكنيسة عن التخلص من ثقافة الرومان واليونان ، لأن اللغة اللاتينية والإغريقية هما اللغتان المقدستان اللتان صبغت بهما عقائد الدين . وأين يتعلم الناس اللغة اللاتينية واليونانية إن لم يتجهوا نحو آداب الرومان واليونان . وديانة الرومان واليونان شعائر عملية ممتزجة بالأساطير ، على عكس المسيحية القائمة على نظام يتركب من مجموعة من العقائد . وليس المسيحي مسيحياً لأنه يقيم بعض الشعائر الدينية فحسب ، بل لأنه يؤمن بعقيدة خاصة ويعتقد في آراء معينة .

وسبيل تعلم الشعائر الدينية قد يكتفى فيه بالقليل من التدريب ، أما اعتناق الآراء فلا يتم إلا بواسطة التعليم سواء اتجه هذا التعليم إلى العقل أم إلى القلب . لهذا السبب اصطنعت المسيحية منذ نشأتها طريقة التعليم والوعظ . ولكن التعليم لا بد أن

يستند إلى أساس من الثقافة ، ولم تكن هناك ثقافة إلا ثقافة الرومان واليونان اللاتينيتين ، فاضطرت المسيحية إلى اصطنائها . ثم إن المعلم أو الواعظ يحتاج إلى ذلاقة اللسان وسحر البيان وقوة الحجة والإقناع والبصر بأحوال الناس ، والمعرفة بتاريخ البشر . ولم تكن هذه المعارف المختلفة موجودة إلا في آثار الأقدمين . وكانت حاجة المسيحيين شديدة إلى هذه الثقافة لفهم الكتابات المقدسة فهماً جيداً ، فلا بد من التبحر في اللغة والتكهن منها ، ولابد من معرفة التاريخ لتحديد الحوادث في سجل الزمان . وكانت الحاجة إلى البلاغة أشد لأنها سلاح المؤمن الذي يدفع به أخطاء الرذيلة .

تلك هي الضرورات التي ألجأت الكنيسة إلى افتتاح المدارس لتعليم هذه الألوان المختلفة من الثقافة .

ونشأت باكورة هذه المدارس في أحضان الكنائس والأديرة . وكان الطلبة يتفقون حياتهم منذ الصغر في الأديرة لإعدادهم لحياة الكهنوت . وهي حياة زهد وتشف يسودها طابع الروح المسيحي .

وتمتاز هذه المعيشة المسيحية عن تصوف الهنود ، فالבודהية ترمى إلى فناء الفرد لبصل إلى معرفة الحقيقة الكلية . أما المسيحي فلم يكن يسعى إلى خلاص نفسه فقط ، بل إلى خلاص الإنسانية كلها . لهذا السبب لم ينصرف الرهبان في عزلتهم إلى التأمل فقط ، بل كانوا ألسنة تذيع العقيدة وتبشر بالدين . ولهذا السبب أيضاً ظهرت المدارس في داخل الأديرة تهيب الطلبة إلى معيشة الدير .

ولم يجد المسيحيون حرجاً في قبول جميع الصبيان من كل طبقة وصناعة يثون فيهم الدين والعلم .

هذه المدارس الكنسية هي الخلية الأولى التي تفرع منها بنيان التعليم في أوروبا فنشأت عنها الجامعات والكليات . ومن هذا يتضح لنا السرف احتضان الكنيسة للمدارس ، وفي خضوع التعليم للدين .

ولم يخل المنهج الذي كان متبعاً في تلك المدارس من تناقض في نظامه ، فهناك علوم مدنية تدرس إلى جانب مبادئ الدين . لأن عنصر الدين مستمد من

المسيحية ، والجانب المدني مشتق من الحضارة القديمة .

والجديد الذى جاء مع هذه المدارس المسيحية هو لزوم الطلبة أستاذاً بعينه ومكاناً بعينه . ذلك أن الطالب فى الأزمنة القديمة كان يتلقى العلم على مدرسين مختلفين لارابطة بينهم ، فهو يذهب إلى معلّم اللغة يتلقى عليه قواعد النحو والبيان ، وإلى عازف القيثارة يتعلم منه الموسيقى ، وإلى معلّم الخطابة يتعلم فن الفصاحة وهكذا . لذلك كان الطالب يحشد فنوناً من المعرفة لاصلة بينها .

أما المدارس المسيحية فلأنها انتظمت فى مكان ثابت واحد فإنها خضعت لتأثير واحد ، واتجهت وجهة خلقية واحدة .

ومما يميز هذه المدارس أيضاً الصلة الدائمة بين الأستاذ وتلاميذه ، لأن معيشة التلاميذ كانت معيشة رهبنة داخل الدير .

ولما كان التلميذ فى اليونان والرومان يتلقى علومه على مدرسين متباينين لا تجمعهم صلة ، وكان كل مدرس يقوم بالتعليم فى داره على طريقته الخاصة ، لهذا توافرت المعرفة فى ذهن التلاميذ ولم تتجه إلى هدف واحد . فواحد يعلمه القراءة ، وآخر يقوم لسانه ، وثالث يلقنه الموسيقى ، ورابع آداب السلوك ، بينما المدرسة المسيحية تتعهد التلميذ تعهداً كاملاً . ولم يكن التلميذ فى حاجة إلى مبارحة المدرسة ، فهو يجد فيها كل ما يطلب ، ويقضى فيها حياته ، يأكل وينام ويؤدى طقوسه الدينية . وهذا النظام الداخلى من أخص سميات هذه المدارس الكنسية . بهذا خضع التلميذ لتأثير واحد وانصرف نحو تيار واحد .

وكان الغرض من التعليم قديماً تزويد الأطفال معلومات معينة ، الغاية منها أن تكون زينة يتحلّى بها الطفل ليرفع منزلته الشخصية بين أترابه ، كما كان الحال فى روما والمدن الإغريقية . وكان من السهل أن يتلقى الطفل هذه المعلومات أو العادات من مدرسين مختلفين ، إذ كان الغرض أن يتزود الطفل بحيلة خارجية ، لا أن تطبع شخصيته فى أعماقها أما المسيحية فعلى العكس من ذلك ، فطنت إلى أن إعداد المسيحي الصحيح لا يتم بتزويده بعض الآراء أو العادات ، بل بطبعه بطابع عام يصوغ العقل والإرادة فىرى العالم فى ضوء هذه التعاليم . فالمسيحية استعداد نفسانى

لا ينشأ إلا بتربية خاصة . ولا يتوصل إلى هذه التربية إلا إذا عاش الأطفال في بيئة اجتماعية واحدة يلازمونها زمناً طويلاً ، حتى تتزل منهم التعاليم المنشودة منزلة الطبع .. وهذا هو السر في معيشة التلاميذ معيشة داخلية واحدة (١٧) .

ونخرج من هذا العرض بالنتائج الآتية :

١ - حلت المدارس المسيحية مكان التعليم اليوناني والروماني وذلك بعد جهاد طويل .

٢ - كانت المدارس الكنسية ملحقة بالأديرة والكنائس والمعيشة فيها داخلية .

٣ - الغرض من هذا التعليم هو التأثير في الشخصية ، وطبعها بالطابع المسيحي ، وإعداد التلاميذ لحياة الرهينة .

٤ - لم تكن هذه المدارس عامة لجميع أفراد الشعب ، بل اقتصر على طبقة الكهنوت . ومن الواضح أن هذا النوع من التعليم يختلف عن الكتابات الإسلامية ، فالكتابات الإسلامية عامة لجميع أفراد الشعب ، ولم يكن من الضروري وجودها بالمساجد ، ولم يكن الصبيان يعيشون فيها معيشة داخلية . ولم تكن صلة معلم الكتاب بالصبيان صلة الراهب بتلاميذه يقتحم شخصياتهم ليطبعها بطابع المسيحية . ذلك أن معلم الكتاب ملقن ومرشد وليس واعظاً يسعى إلى بث آراء معينة ، فهو يعلمهم القراءة والكتابة . ويحفظهم القرآن الكريم ، وهو الجزء الأساسي من تعليمه .

ولو أن المسلمين أخذوا نظام الكتابات عن الفرس والروم . ونقلوها عنهم ، لظهرت منذ بدأت الدعوة الإسلامية . ولكن الواقع يدلنا على أنها لم تظهر إلا بعد تمام الفتوحات ، وبعد دخول الناس في الإسلام . من أجل ذلك قلنا إنها قد نمت وتطورت مع نمو الإسلام وانتشاره .

أما في عهد النبي فكان تعليم الدين الإسلامي شاملاً للجميع ، صبياناً ورجالاً ونساء وكان الغرض منه أن يحفظ الناس شيئاً من القرآن ، وأن يتعلموا ما يلزمهم في

العبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر الفرائض الإسلامية . واتبع المسلمون كافة السبل في الوصول إلى نشر دعوتهم فعملوا في دورهم ، وفي المساجد ، وفي كل مكان ولم يفهم الحث على تعلّم الكتابة .

ولما انقضى هذا الدور الأول في نشر الدعوة بكافة الطرق ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وكثر عدد المسلمين ، واعتنقت غالبية السكان الدين الإسلامي ، انصرفوا عن نشر الدين إلى النظر في أمور المعاش وإلى تنظيم الدين وضمان العبادة الصحيحة . ويتقضى النظام الاجتماعي أن يكون البدء في تعليم الأجيال عن طريق تربية الأطفال حتى إذا شبوا أصبحوا مطبوعين بطابع الجيل الجديد .

وقد تطوع المسلمون الأوائل بالتعليم بدافع الروح الجديد . فلما انتشر الإسلام تعذر أن يقوم التعليم على التطوع ، وظهرت صناعة التعليم ، وتناول المعلمون الأجر ، وأفتى الفقهاء بجواز ذلك .

وكان بعض المعلمين يقوم بمهمته في المساجد ، ولكن عبث الصبيان الصغار الذين لا يتحفظون من النجاسة جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان في المسجد ، فظهرت الكتاتيب منفصلة عن المساجد ، وأصبحت خاصة بتعليم الصبيان .